الفصل الثانى

عمران مدينة صقلية

عمارة المدن فى صقلية الفاطمية :

مدينة بالرم والخالصة (خريطة ٢، ٣) :

بالرم هى قصبة صقلية[١]؛ اتخذها المسلمون عاصمة لحكمهم، وهى من أهم مدن الجزيرة آنذاك، وكانت تتمتع بمكانة خاصة قبل الفتح الإسلامى؛ فهى من أهم مدن الجزيرة وأقدمها؛ فهى مدينة بحرية جيدة الميناء سهلة الاتصال بإفريقية، وكانت المنطقة المحيطة بالمدينة خصبة، فضلاً عن توفر المياه بها، وكانت من أول المدن التى استولى عليها المسلمون، وكانت تقع فى المنطقة الغربية التى يكثر فيها العنصر الإسلامى، وكان هذا عاملاً أساسياً أدى إلى تفضيل المسلمين لها على مدينة (سراقوسة) الواقعة فى الجزء الشرقى من الجزيرة، والتى كانت مركزاً للعنصر الأفريقى، وقاعدة للدولة البيزنطية، واتخذها المسلمون عاصمة لهم منذ عام٢١٦-٤٦٤هـ/ ٨٣١- ١٠٧١م[٢].

وقد وصفها لنا ابن حوقل الذى زار الجزيرة خلال حكم المسلمين لها فى العصر الفاطمى وذلك فى سنة٣٦٢هـ/ ٩٧٢م وصفاً رائعاً فى كتابه صورة الأرض[٣]، فذكر " أنها من المدن الكبرى، مستطيلة التخطيط ذات سوق قد أخذ من شرقها إلى غربها يُعرف بـ (السماط) مفروش بالحجارة عامر من أوله إلى آخره[٤] ".

ويُستشف مما ذكره ابن حوقل أن لهذه المدينة سور يحيط بها كان قد شيده الأغالبة أثناء حكمهم للمدينة، ويتخلل هذا السور عدة أبواب كبيرة بلغ عددها تسعة أبواب منها عدة أبواب تم استحداثها[٥] فى العصر الفاطمى، منها باب بجوار باب البحر أحدثه أبو الحسين

---

(1) المقدسى (شمس الدين أبى عبد الله محمد بن أحمد بكر الشامى المعروف بالبشارى) أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم، ط٢، ليدن١٨٩٦م، ص٢٣١- ٢٣٢.

(2) عمر كمال توفيق: المجتمع العربى الإسلامى فى بالرمو، ص١٨٠.

(3) ابن حوقل (أبى القاسم النصيبى): صورة الأرض، ص١٢٢.

(4) المصدر نفسه، ص١٢٢.

(5) الراجح أن السور بكامله قد تم تحديده أيضاً فى هذا العصر، انظر: Bellafire(G); Dall' Islam, p. 14.

أحمد بن أبى الحسين[1] سنة٣٤١- ٣٥٣هـ، وقد شيده على نشز، مطل على نهر وعين تدعى عين شفاء وبها يُعرف هذا الباب، كما استحدث باب آخر عُرف بباب الرياض بجوار باب (ابن قرهب) فى وضع غير حصين، ثم باب آخر لم يسم باسم كان يخرج منه إلى حارة أبى جمين. وبذلك تكون البوابات الفاطمية ثلاث والبوابات المشيدة فى الفترة الأغلبية (ست) هى (باب البحر، باب شنهاث، باب روطة، باب الأنبياء، باب السودان، باب الحديد الذى كان يؤدى إلى حارة اليهود). وبذلك تكون جملة الأبواب التى تخترق السور الحجرى الحصين الشاهق تسع؛ وقد جدد السور بكامله وتم تحصينه فى عهد الأمير محمد بن الحسين بن على بن أبى الحسين فى سنة ٣٥٦هـ/ ٩٦٦م بأمر من الخليفة المعز لدين الله بعد صلحه مع الدولة البيزنطية[2] ولم يرد عن هذه الأسوار أو الأبراج التى كانت تكتنفها أية أوصاف معمارية اللهم إلا ما ورد عن شموخ السور ومنعته فى وصف ابن حوقل له. غير أن الوصف الوارد للسور يشير إلى أن غالبية بنائه قديم فى الفترة الأغلبية التى تعود للقرن الثالث الهجرى/ التاسع الميلادى.

وتمتاز عمارة المدن فى الفترة الأغلبية بإحاطتها بالأسوار الشاهقة مثلما فعلوا فى مدينة سوسة التونسية وصفاقس[3] والحمامات[4]،وهذه الأسوار كان يتخللها الأبراج الأربعة الحصينة التى تنتهى بصف من الشرفات التى تأخذ هيئة ورقة نباتية ثلاثية[5]، والتى تم بناؤها من الأحجار النحتية.

ولما قامت الدولة الفاطمية بالمغرب تأثرت بما شاهدت من مدن شيدها الأغالبة فى رقادة، وسوسة، وصفاقس عندما شيدوا مدينتهم المهدية، فأحاطوها بسور تخترقه البوابات[6].

---

(1) زامباور: معجم الأنساب والأسرات الحاكمة، جـ١، ص١٠٦- ١٠٩.

(2) عبد المنعم رسلان: الحضارة الإسلامية، ص١٩٨.

(3) Mahfoudh (F); La Grande Mosquee de Mahdiya et son Influence sur L'Architecture Medievale Ifriqiyenne, L'Egypte Fatimide son Art et son histoire, Actes du Colloque Organise a Paris, Sorbonne Universite Presses, 1999, pp. 127- 137.

(4) سليمان مصطفى زبيس: المرجع السابق، ص٨.

(5) سليمان مصطفى زبيس: المرجع السابق، ص١٢.

(6) سليمان مصطفى زبيس: المرجع السابق، ص١٢.

وهذا التأثير قد انتقل أيضاً إلى ولاة صقلية فى العصر الفاطمى فأنشأوا ضمن سور بالرمو البوابات الإضافية التى تقوى تحصينه وتزيد منعته، وبذلك تصبح مدينة بالرمو ثانى المدن الفاطمية بعد المهدية ذات الأسوار والأبراج وبالتالى فإن هذا التأثير سينتقل إلى القاهرة الفاطمية من بلاد المغرب مثلما تأثرت به صقلية. وقد أُطلق عليها اسم (المدينة) أو (القصر).

وقد ظلت بالرم مركز الحكم حتى سنة٣٢٥هـ/ ٩٣٦م، عندما أصدر الخليفة الفاطمى القائم بأمر الله، أوامره إلى قائده أبو العباس خليل بن أسحق حاكم الجزيرة فى هذا العام وحتى٣٢٩هـ/ ٩٤٠م[1]، ببناء مدينة جديدة خارج مدينة بالرم على مرسى المدينة أُطلق عليها اسم (الخالصة).

ويتضح من هذه التسمية الغرض الذى بنيت من أجله وهو جمع الخلصاء للوالى أو الخليفة فقط، وذلك لعدم اطمئنانه لأهل صقلية عامة وأهل بالرم خاصة.

وقد أمدنا ابن حوقل بوصف لهذه المدينة الجديدة فقال: " ذات سور من حجارة وليس كسور بالرم يسكنها السلطان وأتباعه، وبها جيش السلطان ودار صناعة البحر، وفيها حمامات، ولا أسواق فيها ولا فنادق وفيها مسجد جامع صغير، ولها أربعة أبواب من الأمام والخلف والغرب والشرق يوجد البحر وفى هاتين الجهتين سور بدون بوابات[2] حوله خندق يتقدمه فصيلاً لزيادة حصانتها وقد عُرفت باسم (الربض).

وقد أمدنا المقدسى بأسماء أبواب مدينة الخالصة التى فتحت فى السور الأمامى والخلفى وهى باب كتامة، وباب الفتوح، وباب البنود، وباب الصناعة[3] وهى أسماء تتشابه مع تلك الأسماء التى أطلقها بعد ذلك الفاطميون على إحدى بوابات السور الشمالى بمدينة القاهرة، وعلى إحدى القبائل المغربية، وكذلك على إحدى الخزانات الخاصة بالأعلام، ودار الصناعة التى كانت تُعد السفن وتُصنّعها؛ مما يشير إلى استقرار النظم الفاطمية فى صقلية قبل القاهرة بأكثر من ثلاثين عاماً.

وهذه البوابات أيضاً لم يرد عنها أية أوصاف معمارية ويرجح تشابهها مع مدينة المهدية بتونس، غير أن أسوار الخالصة كانت أقل ضخامة من أسوار بالرم، ويتضح من هذه

---

(1) زامباور: معجم الأنساب، ص١٠٦- ١٠٩.

(2) ابن حوقل: صورة الأرض، ص١١٩.

(3) المقدسى: أحسن التقاسيم، ص٢٣١.

الأوصاف التى ذكرها الجغرافيون بأن المدينة كانت ذات طابع خاص، فقد خلت من الأسواق والفنادق، وهى بذلك تُعد إرهاصات البداية لإنشاء المدن ذات الطبيعة الخالصة مثلما فعل جوهر الصقلى عندما شيد القاهرة لتكون حصناً للخليفة ورجال دولته.

وقد ظلت مدينة الخالصة منذ إنشائها وحتى عام٤٣١هـ/ ١٠٣٩م، مقر الحكم والإدارة والجيش[١]، ثم عاد الأمر بعد ذلك لبالرم وحتى دخول النورمانديين الجزيرة.

وقد تم إحاطة بالرم والخالصة بسور آخر أصبحت الخالصة ضمن حدود مدينة بالرم على الرغم من تخريبها وبطلان استخدامها كدار إمارة بعد عام٤٣١هـ/ ١٠٣٩م. (انظر خريطة شكل٢). وقد أشار إلى وجود هذا السور الجغرافى الإدريسى فى عهد روجر الثانى فى النصف الأول من القرن الثانى عشر الميلادى/ السادس الهجرى. وهو ما لم يرد عند ابن حوقل الذى زار المدينة قبله[٢].

ويشير ابن جبير فى النصف الثانى من القرن السادس الهجرى/ الثانى عشر الميلادى إلى وصف مدينة بالرم بأنها قرطبية البناء مبانيها كلها بمنحوت الحجر المعروف بالكدان، وهى تتشابه مع قرطبة فى أن لها (مدينة قديمة تعرف بالقصر القديم فى وسطها، وبهذا القصر القديم وبأركانها القصور المشيدة والتى بها مناظر تحار الأبصار فى حسنها)[٣]، وهى بهذه الصورة التى رآها عليها ابن جبير صورة متوارثة للمدينة الإسلامية التى شيدت فى عصر الفاطميين الكلبيين. وقد انتشرت داخل بالرم منذ تشييدها وخلال مراحل تعميرها فى العصر الفاطمى الحارات والأسواق التى عرفت بـ (الأسمطة) والتى فرشت أرضياتها بالحجارة والتى انتشرت بداخلها كافة أنواع التجارة؛ كما انتشرت بداخلها العمائر الكثيرة ذات الصفة الدينية والمدنية مثل المساجد ومحاضر التعليم، والقصور، والحمامات[٤].

---

(1) أمبرتو ريتزباناتو: الروض المعطار، ص١٥١.

(2) عبد المنعم رسلان: الحضارة الإسلامية، ص١٩٣.

(3) ابن جبير: الرحلة، ص٢٣٠.

(4) غوستاف لوبون: حضارة العرب، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مكتبة الأسرة، ٢٠٠٠م، ترجمة عادل زعيتر، ص٣١٠. كذلك فقد شيدت فى العصر الفاطمى، البيمارستانات، والمدارس، والمساجد، والحمامات.

انظر: The Kalbids in Sicily, Http:/www. Global.net,p.1.
Bellafiore (G); Dall' Islam,p.14.

وبذلك يكون القصر أو المدينة (بالرم) قد شيدت كمدينة للعامة تضم العمائر الدينية والمدنية والأسواق، أما الربض فقد خصص للإدارة والإمارة لفترة تقارب القرن ثم عاد الأمر بعد ذلك لبالرم وتم دمج المدينة مع الربض بسور آخر يحيط بهما، وقد استمر هذا السور حتى القرن السابع عشر. (انظر الخريطة شكل٢، شكل٣)

** ** ** **